

مقدمة

قديمًا قال الرواة : الدهاة أربعة :

١ - معاوية بن أبى سفيان - للروية .

٢ - عمرو بن العاص - للبديهة .

٣ - المغيرة بن شعبة - للمعضلات .

٤ - زياد بن أبيه - لكل كبيرة وصغيرة .

ومن يتأمل حياة أولئك الأربعة يجد أنهم بعد أن أسلموا أسندت إليهم مهام في حياة النبي - ﷺ - وأبى بكر وأصبح لهم وجودهم على الساحة العربية ، وتلقوا مبادئ الإدارة والسياسة على يد عمر - رضى الله عنه - وأنجزوا المهام التى أسندت إليهم وقاموا بها خير قيام .

وقد كان من أمرهم فيما بعد أنهم شغلوا الناس ، وواجهوا الفتن والأحداث في خلافة عثمان وعلي - رضى الله عنهما - ثم وطدوا ملك بنى أمية حيث كانوا دعائم الدولة الجديدة من حول معاوية ، ولم يُفرقهم إلا الموت حين لقي « عمرو » ربه وهو والى على « مصر » من قبل معاوية سنة ٤٣ هـ وتبعه « المغيرة بن شعبة » وهو والى على « الكوفة » لمعاوية سنة ٥١ هـ ثم لقي زياد ربه وهو والى على « الكوفة » و « البصرة » معاً لمعاوية سنة ٥٣ هـ أما « معاوية » فقد ظل خليفة للمسلمين حتى سنة ٦٠ هـ .

ومهما يكن من شيء فإن من الصعب أن يحاول المرء متابعة « دهاة العرب في الزمان والمكان على ساحة امتدت من شبه الجزيرة العربية إلى بلاد فارس والروم وحتى شمال أفريقيا منذ إسلامهم إبّان حياة الرسول - ﷺ - ومواكبتهم عصر الخلفاء الراشدين وصدر بنى أمية ؛ فإنهم لم يكونوا مجرد أشخاص ، وإنما كانوا دهاة صنعوا التاريخ ، وتركوا بصماتهم على صفحاته !

إن حياتهم لم تكن حياة عادية ، فبينما همى تموج بالأسى والهول موجاً ، إذا همى تنفجر عظمة ودهاء وذكاء ، وغلبة وانتصاراً .

وسوف تجد أيها القارئ العزيز أنه ليس من هدفى أن أقدم تاريخاً ذا نهج مدرسى ، ولكننى كنت أبحث عن روح التاريخ فى الوقائع والأحداث حيث يلتقى الورع والدهاء والنصر والهزيمة ، والحلم والعزم ، والشدة واللين !! مُركِّزاً على إبراز ما كان لأولئك الأربعة من دهاءٍ فى الإدارة والسياسة !

أنت إذن أمام صور من هذا التاريخ تُبرز الدهاء العربى الذى نفتقده اليوم فى إدارتنا وسياستنا ! فعيب الكثيرين أنهم لا يفكرون إلا لوقتهم ، ولا ينظرون على المدى البعيد إلا إلى مواطنى أقدامهم ، مما كان له أثره فى تخلف مسيرتنا عن ركب الحضارة !

وعيب الكثيرين أنهم لا يفطنون إلى دهاء أعداء الأمة وحيلهم ، وألاعيبهم ، ونواياهم الشريرة ، ومن هنا نراهم يسقطون فريسةً للأطماع ، ويُضبحون ألعبوبة حتى فى يد الرعاع من شدَّاذ الآفاق ، وأصبحوا كما نرى كريحشة فى مهب الرياح ، تلعب بها الأهواء ، وتحركها ألى تشاء حتى صدق فيهم القول : إنهم كالأيتام فى مأدبة اللثام !

لقد فاتهم أن الزعامة الحققة تقوم على دعامتين هما :

١ - بعد النظر فى استكشاف غوامض الأمور ، وهو ما نُسَمِّيه « دهاء » أو كياسة .

٢ - أما الدعامة الثانية فهى : الاستقامة ، أو التقوى .

فإذا لم تجد « الحقائق أو المصالح » دهاءً يحق دهاء الطامعين المبطلين المفسدين عَمَى على العامة أمرها ، وظهرت الضلالة والسفاهة مكانها !!

ألم يقل السابقون فى تجاربهم :

« لا يَفَلَّ الحديد إلا الحديد » ، و « من لم يتدأَّب تأكله الذئاب ! » ، و « إن كنت ربحاً فقد لاقيت إعصاراً » ، و « لا تكن صلباً فتكسر ، ولا ليناً فتعصر » !!؟

وقد يتوهم بعضهم أن الدهاء لا يجمع مع سلامة الضمير ، والحرص على فعل الخير ! ، ولكنهم أخطئوا ؛ فلقد حذرنا الدين الحنيف من أن نُلدَغ من جحر مَرَتين ، وأرشدنا إلى استعمال الفطنة ، فالقمن كيْسَ فطن .

ويعتقد بعضهم أن العرب أبعد الأمم عن السياسة ، كما قال ابن خلدون في مقدمته ، وفاتهم أن مراده أن ذلك كان قبل أن يستضيئوا بحكمة الإسلام !! فلما جاء الإسلام ساسوا الأمم ، وقادوا الشعوب ، ودانت لهم الفرس والروم !!

وفي تاريخنا الإسلامي نماذج لفن الدهاء تكشف عما وراءها من فهم للأُمور ، وبعد نظر في استكشاف غوامضها إلى جانب الاستقامة ، وإرادة الخير العام ومن يُقلب صفحات التاريخ يجد أمثلة تُخَذَى ومواقف مازالت تُرتجى ! نقرأ في تاريخ الفرس : أن سعد بن أبي وقاص أرسل « المغيرة بن شعبة » إلى « رسم » القائد الفارسي ، فأقبل حتى جلس معه على سريه ، فوثب إليه أتباع رسم وأنزلوه من السرير .

فقال المغيرة : إنا يامعشر العرب ، لا يستعبد بعضنا بعضاً ، فظننت أنكم تتواسون كما تتواسى ، وكان أحسن من الذى صنعتم ، أن تُخبرونى : أن بعضكم أربابُ بعض !

اليوم علمت أنكم مغلوبون ، وأن مُلكاً لا يقوم على هذه السيرة ، ولا على هذه العقول !

وإنما قصد « المغيرة » بما صنع ، وما قاله : تعليم القوم « المساواة » التى جاء بها الإسلام ليألفوه ، وإشعارهم بأنهم يعيشون تحت راية تلك الدولة عيش المستعبدين ليجنى من وراء هذا سقوط مكانتها من أنفسهم ؛ فلا يدافعون عنها من صميم أقدتهم !

« إن القادة والساسة وممثل الشعوب لا غنى لهم عن « الدهاء » فى السياسة وبخاصة أولئك الذين يقبضون على زمام « طوائف » اختلفت أهواؤهم سبلاً ، وتفرقت آراؤهم مذاهب .

فإذا رأينا السياسة في عهد آبي بكر وعمر - رضى الله عنهما - تسير على مناهج من «العدل» واضحة فلأن الرئيس عادل ، ومعظم الأمة على سبيل من الهداية لا تختلف .

وماستقام الأمر لـ «معاوية» مع ما خالط الأمة يومئذ من التفرق في الآراء إلا لأنه كان يسلك في السياسة مسالك خفية ، ويركب لها من الطرق الوعرة ما لم يركبه الخلفاء من قبله^(١)

ومعاوية هو الذى يقول : «لو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت ، ف قيل له : وكيف ذلك ؟ فقال : كنت إذا شدوها أرختها ، وإذا أرخوها شدتها .

و «عمرو بن العاص» الذى سمي «أرطبون العرب» هو الذى واجه «أرطبون الروم» على أرض فلسطين حتى هرب من وجهه إلى مصر فراح يغزوها ويلاحقه !

أنت إذن مع أربعة من الذهابة كان لهم شأنهم ! ولا عجب ؛ فقد عاشوا عهد الحروب الأهلية حول الحكومة الإسلامية لمن تكون ؟ وكيف تكون ؟ وعاصروا وقائع «الجمّل» ، و «صقّين» و «التّهروان» حيث انتهت الأوليان بإقرار الحكومة فى البيت الأموى ، أما الثالثة فقد أعقبت نشاط الخوارج الذى لم ينقطع بسرعة !

ومهما يكن من شيء فإننا سوف نتابع السلوك السياسى عنيماً صارماً ، أو ليناً حازماً .

وسوف نواصل الخطى لنقف على سياسة «مكهاوية» قطب الرحى آنئذ حيث يبدو لنا سياسياً ليناً واسع الحلم حسن التدبير سَمَحاً ، وقد ظهرت خلاله هذه مع رعيته وخصومه السياسيين ، وتأثر بها ولاته ، وعلى رأسهم :

(١) رسائل الإصلاح لشيخ الأزهر الأسبق محمد الحضر حسين .

«المغيرة بن شعبة» ومن بعده «زياد» بالعراق ، و «عمرو بن العاص» بمصر ، فاستطاع بذلك أن يمهّد الحكومة لنفسه ولأسرته .

ويالها من متعة يعيشها القاريء مع أولئك الدهاة وقد جمعهم الدنيا فلم يفرقهم إلا الموت . كيف كانوا يتصرفون ، وكيف كانوا يتعاملون ؟
قال زياد : ما غلبني أمير المؤمنين إلا في واحدة : طلبت رجلاً فلجأ إليه ، وتحرم^(١) به ؛ فكبت إليه : إن هذا فساد لعملى ؛! إذا طلبت رجلاً لجأ إليك وتحرم بك !

فكتب إليه معاوية : إنه لا ينبغي أن نسوس الناس بسياسة واحدة ، فيكون مقامنا مقام رجل واحد .

ولكن تكون أنت للشدة والغلظة ، وأكون أنا للرفقة والرحمة ، فيستريح الناس بيننا !

ألم أقل لك : إنهم كانوا « مدرسة » في الدهاء ، وأن كل واحد منهم كان له لونه وطريقته ؟ ! فلم يكن كل واحد منهم في سياسته صورة « طبق الأصل » للآخر كما نقول في تعبيرنا الحديث !!

لقد تعلموا من « معاوية » أنه لا ينبغي أن يسوسوا الناس بسياسة واحدة حتى لا يكون مقامهم مقام رجل واحد ، بل هذا للشدة والغلظة وذاك للرفقة والرحمة ، فيستريح الناس بينهم !

ومن عجب أنهم كانوا يتفاهمون ويتلاقون على السياسة العامة للدولة تحت قيادة داهيتهم الأكبر « معاوية » !

وكم نحن بحاجة ماسة إلى دراسة أساليب الدهاة الأربعة في إضعاف الجماعة التي كانت تناوى سُلْطَاتهم ..

والتاريخ الإسلامي حافل بالدروس والمواقف التي تعيننا على مجابهة أعدائنا

(١) تحرم به : عاشره ، ومالحه . وتأكدت الحرمة بينهما .

إن الإغراء بين كُبراء الجماعات المناوئة بالعداوة يفصم رابطتهم ، ويوقع الخصومة فيما بينهم .

وهو مسلك قد يضطر إليه المصلحون في تفريق الجماعة التي تتحالف على ما لا خير فيه .

ومن هذا القبيل ما فعله نُعَيْم بن مسعود - رضى الله عنه - عندما تحالفت قريش وغطفان وبنو قريظة على حرب النبي - ﷺ - في واقعة الأحزاب ، إذ ألقى بينهم ما تقطّع به جبل اجتماعهم على الباطل فانصرفوا خائبين ، وتراجع الدّهَاء اليهودى مدحوراً أمام واحد من العرب استخدم دهاءه !!

« وقد يعمل الطامع في الأمة الغافلة على هذا المسلك كما في الفتن الطائفية حذرا من أن يتبه شعورها فيجتمع أمرها وتوجّه إليه قوتها فمن واجب الأمة التي يربطها دين أو مصالح وطنية أن تؤكد أواصر الإخاء بينها وتجعل المصلحة العامة نصب أعينها !! »^(١) .

ومن أساليب الدّهَاء في القديم أن يسوسوا الجماعة الناشئة بأيدي رجال منهم ذوى حزم ودهاء .

قال عباد بن زياد يصف « زياداً » لعبد الملك بن مروان :

« قدم العراق ، وهى جَمْرَةٌ تشتعل ، فسَلَّ أحقادهم ، ودأوى أدواءهم^(٢) ، وضبط أهل العراق بأهل العراق » .

وهو أسلوب بعيد الشأو ظاهر الأثر قد يأخذ به ذوو السياسة الرشيدة لزيادة تأليف القوم ، وتأكيد الإخلاص في نفوسهم .

ومثل ذلك ما حدث في إرسال عمرو بن العاص وندبه لغزوة ذات السلاسل حيث كان أخواله يتأهبون للزحف على المدينة .

ومن الأساليب التي يتخذها الدّهَاء في وسائل أخذ القوم إلى جانبهم بذل

(١) رسائل الإصلاح لشيخ الأزهر الأسبق محمد الحضر حسين .

(٢) جمع داء ، ويطلق على الأمراض النفسية والقلبية .

شئ من المال إلى ذوى النفوذ من رجالهم . وهو ما كان يفعله « معاوية » وبه استطاع مواجهة « عليّ » وأخذ شطر الخلافة على الرغم مما كان لعل من المكانة الراجعة في العلم والبيان ، والقرب من رسول الله - ﷺ - وبدل النفس وبلوغه ، أبعد غاية في تقوى القلب^(١) .

لقد أذن الإسلام في صرف جانب من الزكاة لأتاس قالوا : أسلمنا ، تأليفاً لقلوبهم ، واستدعاء لاطمئنان عقيدتهم . كما قال تعالى : ﴿ والمؤلفة قلوبهم ﴾ [التوبة : ٦٠] .

إن القوة وحدها لا تستطيع أن تُحمد كل فتنة ، فللدعاء مواضع يظهر فيها فضله على القوة .

منها : دفع الخطر الذى يترأى شبحه من بعيد بحيث لا يشعر به إلا البصير بما وراء الخير من شرور ، فقد يكون استعمال القوة في الشر المتوارى موضع إنكار أو مثار فتنة ، أما الدعاء فيرده ، والنفوس مطمئنة والفتن نائمة .

لا غنى لنا : إذاً عن الدعاء في جو يسوده الصراع العالمى ، وتنازعه المطامع والأهواء ، ويحرك سياسته أساطين الدعاء ! يحتاج الولاة إلى الدعاء في سياسة الجماعات واستبانة الحقوق ويحتاج إليه العلماء في الدعوة إلى الخير فقد تأتى المواجهة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعكس ما يريد الداعية ! ويتنفع الرجل من دهائه عند لقاء الطبقات المختلفة يزن عقول من يلاقونه ويحسن ما تكتن صدورهم وتنزع إليه نفوسهم .

ورُبدة الثقافة كلها في أقطاب الحكم ، وعظماء الرجال ، إنما تلخص في شئ واحد هو : الدراية بالناس ، ونفاذ البصيرة في شئون الدنيا ، وصدق الخبرة في دخائل النفس البشرية ، وهو ما نسميه في أيامنا هذه بـ « الرأى السليم ، والحكمة العملية » .

وكان عليّ أن أسلك في سبيل إبراز هذا الجانب الطريق الذى يجعل من الشخصية محوراً تجمع حوله أقوالها وأخبارها ، بحيث يضم ما تنائر من هذه

(١) رسائل الإصلاح لشيخ الأزهر الأسبق محمد الحضر حسين .

الأقوال فى المراجع المختلفة ، فلا يكاد القارىء يفرغ منها حتى يجد لها فى ذهنه صورة واضحة مرتسمة .

إن تجميع الأقوال والأخبار بعضها إلى بعض مما يعين القارىء على تكوين فكرة واضحة عن الشخصية ، وصورة كاملة لها .

وهذا ما أهدف إليه لتكتمل الصورة بين يدي أولئك الذين يتولون أمورنا ، ويقودون خطانا ، ويواجهون كل يوم دهاء من أعداء الأمة ، عليهم يكتسبون من الدهاء ما يمكنهم من التغلب على دهاء الأمم الأخرى ، كما تغلب أولئك الدهاء على الفرس والروم !

وقد يقال : إن جودة النظر فى الأمور ، وتقدير وسائل الخير إنما يعود إلى الألفية وهى موهبة إلهية ! فالألفى يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمع ! لكننا نقول : إن التدبر فى سير أعظم الرجال ، والنظر فى مجارى الحوادث باعتبار مما تقوى به حصلة الدهاء لدى الناشئين من الأبناء .

لهذا كان من واجب المربين والقائمين على تربية النشء أن يصرفوا العناية إلى تغذيتهم بالحديث عن دهاء الرجال وتنبيههم لما دبروه من وسائل يتفنون بها إصلاحاً أو شرفاً !

ومن حقهم أن يلاحظوا الحوادث التى تظهر من ناحية عرفت بالدهاء ، فيكشفوا غطاءها ، ويقفوها على بطائها ؛ ذلك لأننا نريد أن نعد للمستقبل ناشئة تستقيم على هدى الله ، وتخوض معارك الحياة بكياسة وفطنة وفراسة وألمعية تبصر بها مواقع الخير والشر ، فمن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه ! وعلى قدر ما يكون فى دعاة الشعب وقادته من دهاء وتقوى يعلو شأنهم وتستقر حياتهم ، وتثبت فى مواقف الجهاد أقدامهم ، وتتقدم مسيرتهم نحو الرقى والحضارة والخير والسلام .

محمد إبراهيم سليم

شوال ١٤١٠ هـ
القاهرة الكبرى فى : مايو ١٩٩٠ م